الكتاب الجديد

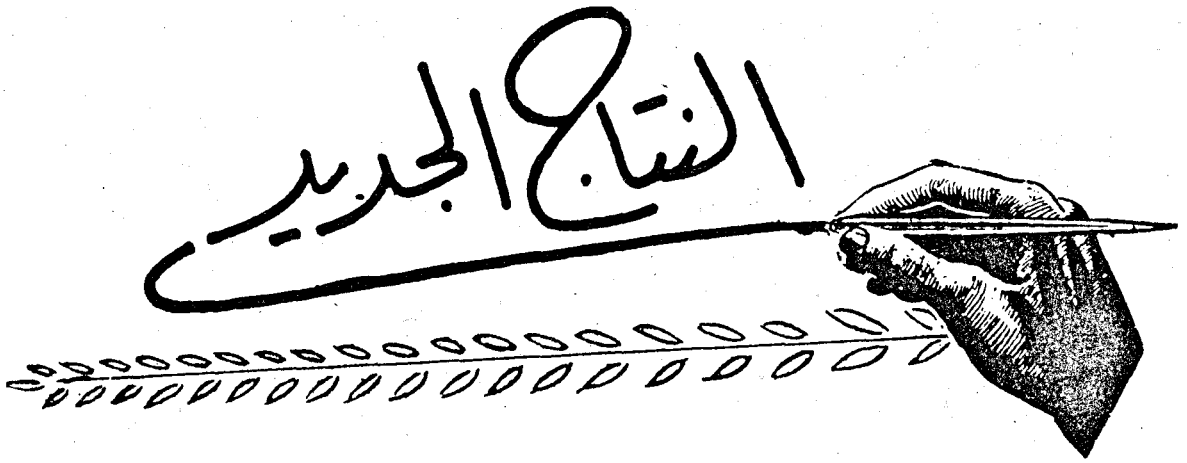

قلق

رواية للدكتور جميل جبر

منشورات دار الطليعة ـ بيروت ـ ٢٠٥ صفحات

ان قرأت عملا من الاعمال الادبية ، لا شك انك سوف تتساءل، ما وسعك التساؤل ، وتفتش عن مفتاح يفضي بك الى قدس الاسرار .

ولعل ان الدكتور جميل جبر قد حاول ان يساعد قارىء روايته على ذلك بقوله (١) : « اعتبر ان خليل لبناني جبلي تقمص الحب عنده اشكالا متعددة . اما كلمة قلق فانها تشمل Anxiètè , Angoisse Inquietude اي القلق على الصعيد الاجتماعي والروحي والميتافيزيقي » .

ولكن حذار . فقد يكون الدكتور جبر قد تعمد ان يعطيك رزمة مفاتيح ، تاركا لك لذة الاهتداء الى المفتاح الصحيح ...

●

نحن الان في رواية « قلق » مع خليل الوردي الشاب المتمرد ، الباحث عن جذور تعمق قدميه في الارض ، هذه المرملة ، وتبعث في نفسه ما يشده الى الاستمرار ، بل ما يحلي ويكوثر له هذا الاستمرار.

ها هي ثريا تدخل فجاة في حياته . لقاء في مقهى على شط المتوسط الشرقي ، ينتهي الى ليلة عاصفة في شارع الحمراء ... ثم لقاءات ، ومحاولة ربط علاقة على وسادة العشق ، فمحاولة انتحار وحادثة تدهور ... وهنا يتدخل القضاء والقدر لينقذها في المرة الاولى على ايدي فتية ، من موت اختناق ، ليسلمها ـ بكل سخريته ـ الى حادثة تدهور بين بحمدون وعاليه ، والى شلل نصفي ليس منه شفاء الا بالاختفاء ... ويتسم دخولها وخروجها من مسرح حياة خليل بطابع الفجاءة . ابهذا الشكل يريدنا الدكتور جبر ان نستبشع اعمال القدر ؟ وعبثه وعدميته ؟

لو ان الكاتب اكتفى بحادثة ، من الحادثتين ، لبقيت روايته في نجوة من الافتعال . الا تكفي ضربة من هاتين الموجعتين ؟

ثم تبرز أمه ، عبر تصرفاته واحة تخفف من عناء سفرته في هذه الحياة ـ الصحراء ، ولا تنساه في احلك الاوقات . وان شغلته امراة : ثريا ، احيانا ، عن تفقدها . والام هنا عفوية ولكنها لم تستطيع ان تعطيه شيئا ، ان تحل مشكلة من مشكلاته ...

وسعيد الشيباني ووداد المصري ماذا يستطيعان ، هما الاخران ، ان يدفعا من غوائل القدر ؟ ام ان الدكتور جميل اتى بهما ليقنع نفسه ، قبل بطل قصته ، بان الحياة لم تخل بعد من الطيبين ؟

ثلاثة روابط ، او جلور ، تربط خليل الى ارضه ، من دون ان تسمح لاعصار « القلق » ان يقتلعه منها . وهذه الروابط هي : ذاته وثريا ـ نهى من قبل ـ وامه . وبيروت المسرح لحياة البطل ، حيزه المكاني ، واما القرية وباريس فهما عارضان ... الاولى خباها البطل في ثنايا سمرته ونحوله ، ربما تبعا لاحساسه بتفاهة محتده ؟ وهو كاحساس اي قروي يتمدين ، وكان الاحرى بالمؤلف الا يجاريه ... اذ انه يحاول ان يزجه في حاضره ، من دون ان يسمح له ولو باجترار ماضيه ، ولو باستشراف مستقبله ، الا لاما . ومن هنا فان الدكتور جميل قد تجاهل امرا مهما تكاد تنفرد به الرواية ـ من دون الاقصوصة ـ من حيث هي صورة عضوية كاملة عن حياة البطل تعنى بكل شاردة وواردة ... وليس لها ان تقتصر ، كالاقصوصة ، على لمسات سريعة مكثفة بقدر الامكان .

ان خليلا مؤرق الجفنين ، لا تكاد تنطبق عيناه على حلم جميل . هو ابدا في ركض ركوض وراء شيء يحققه ، يثبت لنفسه به انه ليس صفرا في مجتمع يكاد يكون مجموع اصفار ..

هذا القلق ، او التململ برأي ميشال اسمر ، او الارق ـ او ما شئت من اسماء ـ هو خطوط عريضة ترسمها ريشة جميل جبر الحلوة على لوحة بارزة امام ناظريك ، خطوط تنتظر يدين فاسيتين ، غير متذبذبتين كيدي خليل الوردي ، لتوضح صورة هذا اللبناني المعاصر، القلق على مصير مجتمعه ، الباحث عن جذور يتمهدها بدم قلبه ، وارق عينيه ورأسه ، مؤملا بعقيدة تشد اللبنانيين الى امر عظيم ، يساوي وجودهم .

انها مشكلة العاطلين ، رغم ما يقومون به من اعمال تقيم اودهم، عن العمل المثمر ، وليس المزهر فقط ... مشكلة الباحثين عن سبل تهديهم لان يحافظوا على الجمال البهي في ربوعهم ، ولان يزرعوه في كل حدقة عين وحبة قلب .

وهو بهذا يحاول ان يرتفع عن مستوى الغوغاء . انه يحمل في نفسه ، المزروعة عبر الصفحات ، بذرة هذا التسامي . وما ترك خليل للوظيفة والسفر الى باريس، والعودة العاجلة منها ، الا ابراز ، رغم ما فيه من افتعال ، لهذه الناحية الارقة ، ولا اقول القلقة ، في وجدانه.

وقول الدكتور احمد مكي (٢) عن بطل القصة خليل الوردي انه : « شخص فوق مستوى البشر العادي » قول مردود في هذا المجال ، اوليس خليل ، في كل ما قال وفعل في الصفحات المئتين ، ما يؤكد تشوفه ، بل اوليس ممن ادركتهم حرفة الشعر والتصوير ، او لا يكون هذا مبررا مقبولا لارتفاعه عن سطحية مجتمعه ؟

ثم ان الرواية تتصدى للناحية الميتافيزيقية ، او تحاول ، فما هو مقدار هذا النجاح ؟

خليل لم يرتفع ، في حين انه ينزل ، الى مفهوم جديد حول هذه النقطة ، ان مفهومه غير بارز العنف .

---

١ ـ في ندوة الاثنين ، على ما نشرت « الجريدة » الاسبوعية عدد ٢١

٢ ـ في « الجريدة » الاسبوعية ايضا .

يخاف أن يجهز على الله في ذاته ، انه لا يقوى على قتله ، والا لماذا يدخل المسجد ليصلي ؟ بل لماذا حسد ابا منصور ، اذ رآه «يعزق بستانه مرندحا » رغم سنيه المتطاولة . ابو منصور الذي « ما خطر له لحظة ان يسأل نفسه عما يفعل » ؟

ونظرة خليل الى المراة نظرة مغرقة في شرقيتها . انها مجرد متعة . او لم تسمع خليل الوردي يقول في سره :

« اعطتك ما طلبت منها . واعطتك من صميمها . فانتفاضتها الحارة ساعة الوصال لايمكن ان تكون مصطنعة . وهل رمت منها غير سكرة؟»

لعل ان هذه من نواحي قلقه الروحية ، في ما عنى المؤلف ، ولكنه ارق لا يساعد «قلقه» في شيء ، بل قد يخفف منه ، في ما بدا لي . ان خليلا لا يعاني « عقدة المراة » فله في حلبتها جولات موفقة . صياد ماهر استطاع ان يوقع في شباكه نهى ـ التي ما لبثت ان ضاعت ملامحها عبر فصول الرواية ولم يظهر لها وجه ، او ظل، او صوت، الا بما يوحيه اسمها ـ واسمها فقط ـ في ذاكرة خليل في النادر الاندر ... بل ان ثريا نفسها ، التي عاشرها ، لم تكلفه جهدا يذكر. فهل صحيح ان «عقدة المراة» بالنسبة للشرقي منحلة على هذا الوجه « الوجودي» ؟ ـ ونحن لا نستبعد واقعية الحادثة : فهناك حالات معاشة تشبهها ـ ولكن هل هي منحلة كذلك بالنسبة للاكثرية ؟

واذن فتعب روحه المرهق ، ينبع من ثقب اخر في حيانه . فما، واين هو ذلك الثقب ؟ اهو احساسه بضياع عمله ، كشاعر ومصور موهوب ، في عين نفسه على الاقل ، في مجتمع لا يقدر ؟ ليت ان الدكتور جبر ركز على هذه الناحية وابرزها ، لساعدت روايته واغنتها في عرضها لقلقه الروحي .. اما اذا كان الدكتور يريد ان يوحي بان البطل ، برغم نفيه بلسانه الخليلي ، انه لا يرغب في الزواج ومع هذا يدفعه « لا شعوره » الاجتماعي للارتباط بام بنين ، فالامر يختلف ..

القصة ، كما سبق ، عرض اكثر منها تعميق لجذور ، كثر ترديد المؤلف لها ، من دون ان يسمح لها بان تتأصل في تراب هذا المجتمع. ولم يهتم بتحليل اي شخص من شخوصه بشكل واف ، حتى لتكاد ان تكون قوالب جاهزة ، قدها قلم المؤلف قدا من سندیانة الواقع ، فهي لا تتنفس بعفوية كافية . انما تتراكض وتتلاحق وتتكالب حول اشباع الغريزة . حتى الام ، على طرافة علاقتها في الرواية واثرائها لها ، تدور في حلقة معروفة عن الامهات . فقد « احترمت » اغفال ابنها لذكر ابيه . اللهم الا انه قد مات . وتعب في « قوقزة » حجارة كان منها بيت ...

ماضي البطل ، في الرواية ، مغفل . انه من « شمر في الجنوب » . وهل هذا يكفي ؟ وكان المؤلف رأى ان عرضه لاحوال المعيشة قد يبعث الاملال في الرواية ، وهو امر مقبول من ناحية معاصرتنا لها ، ولكنه ناقص من ناحية الفن القصصي. بل من حيث ان جميلا لا يكتب ليومه ، انما لغد يفهم ويقرا ...

اما مسالة الحوار فيظهر ان الدكتور جبر من القائلين بترك الفصحى تتعلثم على السنة العامة . ولكنه يبقى امرا مفتعلا . تمنينا لو ان الدكتور اعاره بعض اهتمامه ، ففتش عن كلمات ذات جذر لغوي ممكن ان تتلفظها الالسنة بيسر . فهو بهذا يخدم اللغة العربية ، اكثر من ان يتركنا نحسها عاجزة عن مسايرة الحوار الواقعي . وليس في الامر اي انتقاص من مقدرتها .

فلو ان الدكتور جبر انصرف الى هذه المعالجة بتؤدة ، كان يهتم بتعميق علاقة خليل بماضيه ، وعرض هذا الماضي بما يعكس من ظلال اقوى وملامح اوضح ، لجاءت روايته اقرب الى العمل الفني المتكامل المرجو . وفي هذا خسران للرواية من حيث قدرتها على اقناع القراء بانها نابعة من لبنان ، وليست صدى لما يردد في الخارج، كما قد يذهب بعضهم في التوهم . فالرواية ـ كما لا يجهل الدكتور ـ لم تعد هذا العرض السردي لحياة بطل يستقطب حوله كل شيء ، وتسلط عليه جميع الاضواء ، بحيث يبقى هو سيد الموقف . وان فعل المؤلف ذلك فالافضل ان تصب هذه الروافد ، في مجرى النهر ـ البطل ، لتزيده تفجرا وانبثاقا ... ولا يبقى مجرد محور اولبسي الحركة ، سريعها حتى الدوخة ، يوهمك بانه يقبض على كل شيء ، وفي الحقيقة لا يلامس شيئا ...

وفي الحق ان مصاهرة الرواية للواقع ، ما تزال قائمة . فخليل ابن هذا الجيل اللبناني الحائر ، الباحث عن شيء يضاجعه قلبه وعقله ، لابجسده فقط ، يكرس له نفسه . فهو رغم سلبيته ، واهتمامه باشيائه الصغيرة ، يكاد ينفذ الوعي الى ضميره الذي طالت غفوته . لقد قرر ان يعمل شيئا ، وان يكون شيئا . والرواية ، على اية حال ، حرف رائع يضاف الى ادبنا في هذه الفترة .

*

بلى ، لقد اعطانا الدكتور جميل جبر ، باعتباره خليلا ـ بطل رواية « قلق » ـ لبنانيا جبليا ، مفتاحا في رزمة مفاتيح . ترى هل استطعنا النفوذ الى قدس الاسرار ؟ وان نتطلع ، عبر نافذة محرابه ، الى ما يرغب ان نتطلع ؟

ان الدكتور جبر يبرز في روايته هذه « قلق » ، مالكا لناصية الاسلوب القصصي بكثير من الذكاء والعفوية والرشاقة . بل هو ، بوجه ما ، مؤرخ ـ رغم ما في الكلمة من تعسف ـ لجيله اللبناني المعاصر ، ولما يحمل في ذاته من بذور الوعي والبناء في سبيل لبنان مقبل مشرق . مخلفا وراءه عصور الاتكالية والتخاذل ، وخارجا، عبر الانواء ، اشد تصميما وعافية .

عادل الاعور

قبـــل لا تنتهي

شعر بقلم كمال فوزي الشرابي

منشورات المكتب التجاري – ١٢٨ ص.

من الناس من يسوؤهم ان نعمل لانهم لا يعملون ، ولا يحبـــون العمل لانفسهم ولا لغيرهم في اي حقول العطاء ، ومن الناس من اذا عملت وابدعت في عملك على درب العطاء ، حيوك وانّوا عليك بمـا تستحق ، لانهم يعملون ويهمهم ان يعمل الناس ..

.. ونحن معشر الذين نحب ان نعمل ، ويعمل الاخرون ، قـــد ابتلتنا المصيبة « اجارنا الله » بعينة شاذة من النقاد السلبيين لا يفتـا الادب نثره وشعره يستقيئ منهم بالمنصفين من القراء والمتذوقـــين ويستجير يائسا .. اسوق هذا في اعقاب الحمـلة الظالمة التي شنها احد النقاد في دمشق على شاعر معطاء بمناسبة صدور ديوان حديـث له ، فكان من الغرابة المضحكة ان ترك الناقد ديوان الشعر ، وسـلط قلمه ولسانه على الشاعر ..

انه لمن الافتئات على العمل الفني واد الموضوعية وذبحها على عتبة الغرض الشخصي ، تشفيا ومكابرة على الحقيقة في رابعة النهار ..

... فاذا تساءل المتسائلون عن سبب ظهور هذا الناقد الطرزاني واضرابه في ساح الادب .. نجد ان الازمة الضيقة في الساح تبـرز امثاله حين يغيب الفحول وتنعدم الاصالة وتتلاشى القيم ، وتستنسر البغاث (١) بارضنا ..

هذا عن النقد الذي كان تجريحا من الناقد « بالشاعر كمال فوزي الشرابي » واما عن ديوانه « قبل لا تنتهي » فيطيب لنا ان نتذكر المثل الدارج ونحن نلمس قسوة النقد الشخصي ازاءه :

« مزمار الحي لا يطرب »

فلو كان هذا المزمار من غير هذا الحي لانزله الناقد منزلة القداسة ولقال : لمثله يجب الركوع والسجود .

« قبل لا تنتهي » ديوان شعر رحب كالحديقة الفينانة ، الظليلة، معلقة في تلاع الطبيعة ، ممرعة ، سكب الربيع عليها فوح شـــذاه ، والبسها الخيال فن الصورة ، وروعة الفكرة ، واصالة المعنى ، لبوسات شتى من جمـال الكون والفن ، والحياة .

كن جميلا تر الوجود جميلا ..

كذلك حال لسان شاعرنا الشرابي وما على لسانه غير قلب اضناه الشوق وبعثره الحنين حبات من لآليء مليسة يضفرها اكليل شعر في جيد الانسانية .

فلم لا يكون كمال فوزي متفائلا بساما مقبلا على الحياة ...

ولم يريده ناقدنا ذاك متشائما منهزما معقدا ومدبرا عن الحياة ؟

انه لظلم حين يتنطع النقد الموتور للنتاج الاصيل من غير ما رحمة ولا ترو ولا عدل .

« قبل لا تنتهي » اغنية موسوقة حنون تترنم بها الشفاه الظماى عبر رحلة العمر الى ما لا نهاية ..

واني احب لنفسي ترانيم الشعر وتسابيحه ولا احب فلســـفة وفذلكته وقد قيل في ذلك :

اذا الشعر لم يهززك عند سماعه
فليس خليقا ان يقال له شـعر

وهاك هذه الهزة الدافقة الراعشة من هذه القبل الماتعة :

« واحنو لا بصر بحر الضـياء »
« يموج على لهب المقلتـين »
« وكل تلاوين رحب السـماء »

« تشع مع الحب في الوجنتين » (ص ٢٨)

انها لسلاسة واستطراد ما بعدهما سلاسة واستطراد ..

فقد كفانا تعقيدا في الشعر ورمزية فوضوية ، وتهاويـــل ... فالبساطة والوضوح هما ارومة الشعر الذي يلامس شغـاف القلـب دونما استئذان وحيا الله شاعرنا النجفي حين قال :

تفلسف في اكتناه الشعر قوم فضاع الوقت وامتد الطريـــق
فدع عنك التفلسف وارو شعرا فلي عين ترى وفم يذوق ...

.. اشهد يا أخانا كما ان عيوننا قريرة من رؤية حرفك ، ونفوسنا رضية من روى شعرك ، وانا لنتلمظ من ذوب طعم كل كلمة انطقتهـا شعورا . ووقفت بديوانك في مشارف النور ، تحمل الى النفوس المتعبة، والقلوب الكسيرة الحب والخير والضوء والابتسام..

فاذا كان الناقوس يقرع مرة لحدث ما اعجابا وتهليلا ، فلمثـــل ديوانك وقد فتحت فيه دربا الى قلب الانسان الجديد يقرع الناقوس مئة مرة ...

فلا تظنن انني امتدحك بما ليس فيك .. ان هي الا الحقيقة كمـا هي ، من غير ما تزييف او افتعال ، فما حيلتنا اذا كان مزمارك يطرب حتى الذي لم تتعود اذناه على ذوب النغم ينسكب فيهما ..

... وما حيلتنا ازاء الجمـال والحيوية ينبضان في ديوانك كقلب

(١) الطيور الضعيفة الهزيلة .

عذراء يمعن وجيبه في الخفقان .

نعم يا اخانا كمال « لن تستنسر البغاث في ديوانك ، ما دام لـك قراؤك ومعجبوك : ولنبق على الدرب معا ، انت تنفخ في المزمار ، ونحن نفتح اذاننا وقلوبنا منتعشين من ترانيلك .. فمزمار شعرك يطـرب شاء المفرضون ام ابوا ، ليس في حينا وبلدنا فحسب بل في الكون ..

« ما همني ان كفنت كل الثلوج عوالي »
« او احرقت سود الرياح كواكبي ، ومواسمي »
« او جن اعصار الطبيعة حول بيتي الحالم »
« او طاف بي حزن الشتاء »
« وبكى بقنديلي الرجاء »
« ما همني ما دمت قربي توقدين عزائمي »
« ما همني ان عريت بيد الخريف مواسمي »
« ما دمت احيا من عطائك »
« في ربيع دائم » (ص ٧١)

شعر كمال كما ترى بساطة في قوة ، ووضوح في طلاقة ، وانسياب في عمق ، وابعاد تخرج من القلب لتدخل الى القلب ، وهاكه في «الوعة» الحب المشبوب متفائلا يشدو مترنما :

« وحتى اذا غنينـــــا في الرحـلة النشـوى »
« عدنـا كمـا كنا ... نرانـنـا اقـــوى »
« روحـنا مـــلاى بالشـوق والنجـوى »

ارايت اليه وقد جسد الحب وقولبه في اطـر من القوة والصمـود في وجه الهوى الباكي ؟ انه يدلل ببساطة القوة على شعوره بالحب وشعره عن الحب .. فما احوجنا الى الحب السخي حاجتنا الـى الحياة .. وليس بالخبز يحيا انساننا المعاصر للمناقب والثائر عـلى المثالب .

في شعر كمال شعور الاستسلام لنسمة طرية ترف على هـدبه وتنعش قلبه .. وشعور الصمـود في وجه الاعاصير وموات الخريف ، وجدب المواسم ، ما دامت روحه الظمأى متطلعة الى القنديل المشع مـن عطاء الربيع الدائم .

اتساءل دائما : لم لا يطربنا مزمار الحي ؟ بمعنى هل من الضروزة اللازمة لكي يشعر الناقد بوجوده ان يسد ثغرات النقص عنده على اكتاف « النقد » وان يتناول شاعرا خصبا بلوذاع الكلم فيبحث في لون الغلاف وطريقة تصحيحه .. ويركز على عمر الشاعر ومعيشتـه .. ويتساءل عن شؤونه الصغيرة وكانه يريد ان يساله ما هو لـون ربطة عنقك ؟ ولا يكلف نفسه عناء استجلاء ما بعد الغلاف ، واستقراء ما بين دفتيه .. ؟

وما النقد الا معاناة متمرسة في التقييم فلم يسوء ناقدنـا « الطرزاني » ان يقول كلمة حق في معرض الحق ؟

أيسوؤه ان يحيد عن جادة المنطق ، وينحرف عن احترام ذوق القاريء ومراعاة حرمته وتفكيره ؟

.. ليكن كمال فوزي من غير هذا البلد لرايت سيل المديح ينهمر عليه من بعض نقاد هذا البلد بغير حساب :

على ان عزاءنا وجود بعض النقاد المنصفين المتمكنين بين ظهرانينا ، ممن يضعون ايديهم على ضمائرهم قبل ان يضعوها على خناجرهـم يمعنون بها طعنا وتجريحا ؟

وبعد .. فماذا يقال في « قبل لا تنتهي » ؟ اولا يكفي ان يتمنـى واحدنا وهو يقرا كمالا في قبله ان يكون ذوب هذه القبلة نطبعها باعجاب على جبين الشاعر شاكرين ؟

دمشق

عبدالله الشيتي
من جمعية الادباء

صدر حديثا :

المهزومون

بقلم هاني الراهب

موهبة روائية جديدة تبزغ

في سماء الادب العربي الحديث

الثمن ٣٠٠ ق.ل - ٢٧٥ ق.س

دار الآداب

صدر حديثا

أبيات ريفية

بقلم عبد الباسط الصوفي

قصائد رائعة للفقيد الذي

كان نسيج وحده في عالم الشعر

الثمن ٣٠٠ ق.ل - ٢٧٥ ق.س

دار الآداب